والحال، فالجبهة الديمقراطية التي تنادي بالماركسية ــ اللينينية تصطدم بتناقض نظري لا سبيل لتذليله. وكتابات لينين[٢٦] بشأن القوميات هي على أوضح ما يكون. ان الاعتراف بوجود أمة، من قبل منظمة لينينية، انما يعني الاعتراف بحقها في تقرير مصيرها، وبالتالي في «الانفصال» وفي اقامة دولة مستقلة. والاقرار بوجود أمة يهودية اسرائيلية معناه الاعتراف بحقها في الانفصال، في دولة مستقلة، وبتعبير آخر فهو يعني الاعتراف بدولة اسرائيل.

إنها خطوة لا يمكن للجبهة الديمقراطية، بالطبع ،أن تخطوها. والصيغة التوفيقية التي اعتمدتها آنذاك منظمة التحرير الفلسطينية واضحة جليّة[٢٧]: اليهوديّة دين، ولا يمكنها في أي حال من الأحوال أن تؤلف قومية. كل ما يمكن الاعتراف به (وتعترف به فتح والجبهة الديمقراطية) لا يعدو كونه بعض الحقوق الثقافية. ويشرح مكسيم رودنسون بشكل دقيق الصعوبات التي تحول دون أن ينظر الفلسطينيون والعرب إلى اليهود بصفتهم أمة[٢٨]، وذلك على أساس تجربة تعايش المجموعات اليهودية والمسيحية والاسلامية في الشرق الأدنى.

وفي الواقع، فلا تخرج الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين من هذا الاطار. وهي، بلسان أمينها العام نايف حواتمة[٢٩]، ترفض حتى فكرة الدولة الثنائية القومية لأن هذا يدخل في تناقض مع «الخط التقدمي البروليتاري في حل المسألة الاسرائيلية والمسألة الفلسطينية». (نلاحظ بأنه لم يتوافر، ولن يتوافر لاحقاً، توضيح وافٍ بشأن طبيعة التناقض). ويتأكد هذا الموقف في العديد من وثائق الجبهة الديمقراطية[٣٠].

يمكن التساؤل، إذاً، عمّا إذا لم يكن هناك سوء فهم لموضوعات الجبهة الديمقراطية في أوروبا الغربية. فعندما يكتب جيرار شالياند[٣١] أن «الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين كانت الحركة الوحيدة التي دافعت عن موضوعة الدولة الفلسطينية التي يتمتع فيها اليهود بحقوق قومية...»، أو ليس يفسر فكرة بالغة الغموض وكثيرة التناقض؟

ويبدو أن كل شيء يثبت ذلك؛ وبشكل خاص، مقابلة حواتمة التي ذكرناها أعلاه، وحيث يؤكد أن «الجبهة الشعبية الديمقراطية، انطلاقاً من موقف ايديولوجي، ترى أن اليهودية دين فقط، وتعترف بشرعية اعتبار اليهودية كثقافة للتجمعات اليهودية، وبشكل خاص للتجمّع الاسرائيلي الموجود الآن على أرض فلسطين».

إذا كان ذلك لا يقلل من فضل هذه النظرية بالنسبة لموضوعات الجبهة الديمقراطية، إلّا أنه يضعها في مكانة متواضعة ومتدنّية. سيّما وأن الجانب الآخر، الذي غالباً ما يتم تجاهله، هو الانضمام إلى شعارات القومية العربية.

ذلك أن قادة الجبهة، شأنهم شأن الجبهة الشعبية، متحدّرون من حركة القوميين العرب. وقد تأثروا بالناصرية، ثم بأسطورة الثورة الاشتراكية في العالم العربي كله.

إن ما يهمّهم بالدرجة الأولى في الدولة الديمقراطية هو، بصورة خاصة، حل المسألة اليهودية؛ وبالفعل فإن إقامة دولة مستقلة تبدو لهم ضرباً من الوهم. وقد تضمنّت مذكرة الجبهة إلى المجلس الوطني الفلسطيني السادس، تأكيداً صريحاً على أن الدولة الشعبية الديمقراطية الفلسطينية ستكون جزءاً لا يتجزأ من دولة فيدرالية عربية في هذه المنطقة.